

شرح

كشَفُ الشُّبُهَاتِ

تصنيفُ الإمام
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُلَيْمَانَ التَّمِيمِيِّ
ت ١٢٠٦ رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً

شرح فضيلة الشيخ
محمد ابن عبد الله المالكي

قَالَ الْمُصْنِفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

أَعْلَمُ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَهُوَ دِينُ الرَّسُولِ الَّذِي أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ.

فَأَوْلُهُمْ: نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيْ قَوْمِهِ لَمَّا عَلَوْا فِي الصَّالِحِينَ: وَدَّ، وَسُوعًا، وَيَعْقُوثَ، وَيَعْقُوقَ، وَنَسْرٍ.

وَآخِرُ الرَّسُولِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ صُورَ هَوْلَاءِ الصَّالِحِينَ، أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيْ أَنَاسٍ يَتَعَبَّدُونَ وَيَحُجُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ الْمَخْلُوقِينَ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ ﷻ، يَقُولُونَ: نُرِيدُ مِنْهُمْ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَنُرِيدُ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَهُ؛ مِثْلَ: الْمَلَائِكَةِ وَعِيسَى وَمَرْيَمَ وَأَنَاسٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ.

فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ يُجَدِّدُ لَهُمْ دِينَهُمْ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ هَذَا التَّقَرُّبَ وَالْإِعْتِقَادَ مَعْضُ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَصْلُحُ مِنْهُ شَيْءٌ لِغَيْرِهِ، لَا لِمَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمَا. وَإِلَّا فَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَزُوقُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُحْيِي وَلَا يُمِيتُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُدَبِّرُ الْأَمْرَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ جَمِيعَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ؛ كُلُّهُمْ عِبِيدُهُ وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ.



قال الشارح وفقه الله:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وهو الإمام العلم الغني عن التعريف خصوصًا لأمثالكم من طلبة العلم حفظكم الله وبارك فيكم وفي علمكم.

أولًا قال: (مقدمة في بيان حقيقة دين المرسلين وما دعوا إليه، وحقيقة دين المشركين وما كانوا عليه)، هذه المقدمة ذكر كثير من أهل العلم أنها ليست من وضع شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب،

وإنما هي من بعض العلماء الذين أتوا بعده، إذ وضعوا تبويبات لأقسام الرسالة.

قال: **(أَعْلَمُ - رَحِمَكَ اللَّهُ -)** وتقدم لنا ما تقدم من شرح بعض كتب شيخ الإسلام أنه دائماً يدعو للقارئ والسامع بهذه الدعوة العظيمة، وهي أن يُنزل الله ﷻ رحمته بعبده، ورحمة الله بطالب العلم وطالب الحق هو أن يُمكن له من العلم والفهم السديد كما قال النبي ﷺ في حديث معاوية بن أبي سفيان المُخرج في الصحيح: «من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين» وحديث عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما حينما دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم علّمه التأويل وفقهه في الدين»، فإذا رحم الله طالب العلم وفقه لما ينفعه من العلم ويسّر له الفقه والفهم، ولهذا نجد أن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب غالباً ما يدعو للطالب سواء كان قارئاً أو سامعاً بهذه الدعوة الطيبة المباركة.

قدّمها بقوله: **(أَعْلَمُ)** وتقدم لنا أن (اعلم) فعل أمرٌ يقتضي الجواب، لأن هذا الذي أمرنا بعلمه، وما سيُقدم لنا من العلم به، هو أعظم ما يحوزه المسلم في هذه الحياة الدنيا وهو العلم بحق الله ﷻ على عباده الذي هو سبب خلق الله ﷻ للسموات والأرض ومن عليها ومن فيها، لذلك لما أمر بهذا لعظيم ما هو أمرٌ به دعا بالرحمة حتى يتسنى للإنسان أن يحمل هذا العلم، ويعمل مُخلصاً جاداً طائعاً به.

قال: **(أَنَّ التَّوْحِيدَ)** التَّوْحِيدُ مصدرٌ من وَحَّدَ يوحد توحيداً؛ أي: جعل الشيء واحداً، والمقصود به هنا: جعل المعبود واحد لئلا يكون هناك آلهة غير الله ﷻ تُعبد من دونه سبحانه وتعالى فيُصرف لها شيء من العبادة، لأن المُستحق للعبادة إنما هو الذي يخلق ويرزق ويبيده التصرف التام في خلقه جميعاً، وهذا ليس إلا الله ﷻ.

والتَّوْحِيدُ علمٌ أعمُّ من العقيدة، والعقيدة والإيمان مندرجتان في التوحيد، ولذا نجد أن العلماء اعتنوا بالتوحيد إما بمصنفات مُستقلة كما فعل ابن مندة في كتابه «كتاب التوحيد» وكما فعل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وغيرهم.

وإما ضمَّنوها يعني جعلوها أبواباً أو كتباً داخل مصنفاتهم، وذلك لأن التوحيد هو أعظم ما أمر به العبد كما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حين قال له النبي ﷺ: «يا معاذ، أتدري ما حق الله

على العباد، وما حق العباد على الله؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً». هذا هو التوحيد: «أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يُعذب من لا يُشرك به شيئاً»، والمقصود بحق الله على العباد هو حقُّ استحقاقه الله ﷻ لما كان منه سبحانه وتعالى من خلقٍ وإيجادٍ وإنعامٍ وتصرفٍ في حياة المخلوقات، وحق العبيد على الله ليس هو باستحقاقٍ منهم، وإنما هو كرمٍ وتفضلٍ من الله جل وعلا، كما جاء في الحديث: «لن يدخل أحدُ الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»، لأن أعمال العباد لا ترتقي لأن تكون عوضاً عن النعيم الذي أعدّه الله ﷻ في الجنة، فإن المعاوضة هنا غير حاصلة، ولكن هي طاعةٌ لله ترفع الإنسان إلى درجة الإحسان كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وهذا الإحسان هنا هو تحقيق حق الله ﷻ في الأرض وهو ألا يُعبد شيءٌ في الأرض ممن هم في الأرض إلا الله جل في علاه، لا يعبد أهل الأرض إلا الله جل في علاه، هذا هو الحق الذي لله ﷻ على خلقه استحقاقاً وهو سبحانه وتعالى وحده المستحق لذلك؛ لأنه وحده الذي يخلق ويرزق كما قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] قال ابن كثير: «أي ليوحدون»، وهذا مصداق قوله ﷻ كما في البيئتين: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

قال: (أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ).

عندما نتكلم عن التوحيد مُطلقاً فالمقصود به توحيد الألوهية، وإن كان يندرج فيه توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

والتوحيد الذي خالفت فيه الأمم أنبيائهم إنما هو توحيد الربوبية، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَهُوَ دِينُ الرُّسُلِ) كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فالذي أرسلهم الله به إلى عباده، الله ما أرسل إلا بالتوحيد كما قال النبي ﷺ: «نحن الأنبياء أبناء علات ديننا واحد، وشرائعنا شتى».

فالدِّين بمعنى التوحيد كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالدِّين الذين أرسل الله به جميع الرسل هو التوحيد توحيد سبحانه وتعالى بالعبادة إفراده بالعبادة، وما عُرف مخالفٌ للتوحيد في الربوبية إلا أن يكون فرعون والنمرود وأشباههم، وأيضاً ممن هم من الملاحدة والدهرية الذين يقولون: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وأما الأسماء والصفات فما خالف فيها إلا فرقٌ ممن ينتسبون إلى هذه الأمة وهم ليسوا منها كالمعتزلة والجهمية وأضرابهم الذين تلاعبوا في باب الأسماء والصفات، وجعلوا دينهم ولعباً. قال رحمه الله: (أَرْسَلَهُمُ اللهُ بِهٖ إِلَىٰ عِبَادِهِ) المقصود بالعباد هنا العباد الكونية، لأن العباد هذا الوصف ينقسم على قسمين:

- عبادة كونية: وهم جميع من خلق الله كلهم عباد، ومن جملتهم الإنس والجن.

وهناك عبادٌ بمعنى العبودية الشرعية: أي طائعون موحدون لله.

والمراد هنا بقوله: (إِلَىٰ عِبَادِهِ) العبادة الكونية، فالله ﷻ أرسل الرسل إلى أناسٍ كُفار، وأرسل كل

نبي إلى قومه خاصة إلا محمد ﷺ أرسل لجميع البشر.

قال: (فَأَوْهَمَهُمْ: نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ)، ونوحٌ هو أول الرسل، وآدم هو أول الأنبياء والنبي هو من أوحى

إليه، فكل من أوحى إليه من بني آدم من ذكران بني آدم هو نبي، إذا أوحى إليه بشرع في العبادات

والاعتقادات، فهذا وحيٌ بالتعبد لله ﷻ به، فهذا يكون نبوءةً، ومن أوحى إليه يكون نبياً، وآدم عليه

السلام أوحى إليه، وأما نوح عليه السلام فهو أول الرسل فإنه أوحى إليه، وأرسل إلى قومه الذين غيروا

وبدلوا، ما كان عليه آدم عليه السلام، ومن جاء بعده إلى أن جاء قوم نوح، وكان بينهم زمنٌ طويلٌ جداً.

ونوحٌ عليه السلام أرسل إلى قومه ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، وكانوا إذ ذاك ليس في الأرض إلا هم من بني آدم، لأن الله ﷻ جعله أول الرسل، فأرسل إليهم ودعا قومه إلى أن يتركوا عبادة الأصنام، ويعبدوا الله وحده.

قال: (أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيَّ قَوْمِهِ لَمَّا غَلَوُا فِي الصَّالِحِينَ).

وسبب الشرك في مجمله: هو الغلو في الصالحين، وهؤلاء القوم كان لهم أناس صالحون في زمانهم من أهل بلادهم، هذه أسماؤهم التي ذكرها الله ﷻ في سورة نوح، قال تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قال الله ﷻ: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٤]. وليس المقصود أن الصالحين هم أضل، وإنما هذه الأصنام التي اتخذوها ليعبدوها من دون الله، وأما هذه الأسماء فهي كما قال ابن عباس: «أناس صالحون كانوا يعبدون الله، فلما ماتوا جاء إبليس إلى قومهم، وأشار إليهم أن يجعلوا أنصباء في أماكن عبادتهم تُذكرهم عبادتهم ونشاطهم في العبادة، فكلما مروا بها نشطوا للعبادة وعبدوا الله.

ولما انقضى ذلك الجيل أتى إبليس لمن بعدهم وأقنعهم بأن آباءهم ما جعلوا هذه الأنصباء إلا لكونها تستحق أن تُعبد أنهم شُفعاء عند الله ﷻ، وأن طلبهم يكون من مرضات الله، وأنه يصل إليهم ما طلبوه من هؤلاء الموتى أو الأصنام، ثم لما جاء الجيل الذي بعدهم أقنعهم إبليس بأن هؤلاء آلهة يُعبدون، كما قال الله ﷻ في سورة نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢٣]، ما قال: لا تذرنا أولياءكم، قال: لا تذرنا آلهتكم، فصيروا أولئك الأولياء إلى آلهة، كما صيرت النصراني عيسى بن مريم إله، وكل من صرف شيئاً من العبادة لغير الله فقد صير الذي صرف له شيء من العبادة صيره إلهاً من دون الله، ولهذا جاء التحذير الشديد.

قال: (وَأَخْرَجَ الرَّسُلَ)، عدد الرُّسل جميعاً كما في الحديث أن الله أرسل أربعة وعشرين ألفاً ومائة ألف رسولاً ونبيّاً، قيل: منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رُسل، والبقية أنبياء، وبنوا إسرائيل هم أكثر الأمم

أنبياء، فالله ﷻ أرسلهم لهم أنبياء أكثر من باب الابتلاء والامتحان يطيعونهم أو يعصونهم، وكان من شأن بني إسرائيل أنهم كذبوهم، بل إنهم قتلوا عدداً منهم، وذبحوهم ونكّلوا بهم.

قال: (وَآخِرُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ الْأَصْنَامَ)، إذا النبي محمد ﷺ كَسَّرَ الأصنام التي كان يعبدها كفار قريش، وقالوا: بأن هذه آلهة قالوا: أنهم شفعاء كما قال الله ﷻ عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فأرسل الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ إلى الناس جميعاً، لكنه بدأ من قومه، لأن الله ﷻ أمره بذلك قال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، فبدأ بهم، وأنذرهم ودعاهم إلى الله أنذرهم من عبادة الشرك، ودعاهم إلى عبادة الله وحده في سؤالهم وخوفهم ورجائهم وذبحهم، وغير ذلك من أعمال العبادة.

قال: (أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَىٰ أَنَاسٍ يَتَعَبَّدُونَ) يعني يعبدون الله كفار قريش ما كانوا منصرفين عن عبادة الله، بل كانوا يعبدون الله، (وَيُحْجُونَ) إلى بيت الله، سواء قريش أو غيرهم من العرب، (وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَذْكُرُونَ) الله كثيراً، وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ الْمَخْلُوقِينَ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ ﷻ، وهذا ما لا يُريده الله، بل ولا يُحبه الله، لا يُحبه الله، لأن الله ﷻ نفى الوساطة اللفظية لتتنفي الوساطة العملية، النفع في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فالله ﷻ نفى الوساطة اللفظية وهي مُقتضى قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، ف(إذا) فُجائية تحتاج إلى فعلٍ وجواب، (سألك) هنا الفعل، ما الجواب؟ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ قال: ﴿فإِنِّي﴾ هذا اسم لأنه ضمير، لكن الجواب فعلٌ، وهو مُقدرٌ هنا: (فقل) كما في آيات كثيرة يأتي الجواب جواب (إذا) باللفظ الصريح كما في قوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وفي آية أخرى قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ [البقرة: ٢١٥]، هذا هو جواب لهذا.

وأيضاً: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ﴾ [البقرة: ٢١٩]... وهكذا. ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] .. إلى آخر الآيات التي فيها (يسألونك) وهنا قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ فلم يأت بالواسطية اللفظية وهي (قُلْ) لتجريد التوحيد من كل الشوائب قوليةً أو عمليةً، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ..

وهكذا الرد على أولئك الذين مع الله آلهةً أخرى.

قال: (أرسله الله إلى أناسٍ يتعبّدون ويحجّون ويتصدّقون ويذكرون الله كثيرًا، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقين وسائطَ بينهم وبين الله ﷻ)، وهذا فيه عدم توقيفٍ لله ﷻ، وعدم تقديرٍ له، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وجعلوا الله كالمخلوق يحتاج إلى واسطة، والله لا يحتاج إلى واسطة، هو يسمع ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وهو يرى كل شيء ويسمع كل شيء ويرى كل شيء، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والله ﷻ لا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى، وليس هو بالذي يحتاج إلى مُعيد حتى يؤتى بأحد خلقه ليكون عونًا له، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١] أي مُعينٌ من الضعف، ما كان الله ﷻ يحتاج إلى مُعين ومُساعد لضعفٍ عنده سبحانه وتعالى فهو الكامل في قوته الكامل في غناه، الكامل في ملكه، الكامل في قدرته وغيره ليس بكامل، بل يحتاجون إلى الله، ويحتاج بعضهم إلى بعض، وأما الله فهو الصمد الذي لا يحتاج إلى أحد، وكل أحدٍ يحتاج إليه.

لماذا يتخذون هذه الوسائط؟ قال: (يقولون: نُريدُ منهم التَّقَرُّبَ إلى الله تعالى)، يعني يجعلونهم قُربةً بينه وبين الله يُقربونهم يُدنون بهم إلى الله، وهذا في الحقيقة أمرٌ ظاهرٌ بطلانه، لو أن إنسانًا عنده مسكة عقل ما صدق ولا اقتنع بهذا الكلام، كيف يجعل بينه وبين الله وسائط والله ﷻ هل يحتاج إلى وسائط، هل الله ﷻ لا يعلم حالنا، ولا يسمع مقالنا، ولا يرى مكاننا حتى يحتاج إلى وسائط، ثم هؤلاء الوسائط لماذا يكونون موتى، هذا أمرٌ عجيب كيف ميتٌ يكون واسطة والميت لا يسمعك ولا يستطيع أن يتكلم، ولا يعبد، العبادة تنقطع بعد الموت مباشرة، إذا كيف يكون هؤلاء وسائط؟ قال: (نُريدُ منهم التَّقَرُّبَ إلى

الله تَعَالَى، وَنُرِيدُ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَهُ)، يعني الآن في الدنيا يُريدون أن هؤلاء المسؤولون يشفعون عند الله كما يشفع صديق الوزير وقريب الوزير لأحد من الناس، والله ﷻ تعالى سبحانه عن هذا الفُحش في القول عُلُوًّا كبيرًا، هذا فُحش في القول أن يُقال: بأن الله يحتاج إلى أحد يُدني بعباده إليه، ويشفع له ويتوسط عنده، هذا من غاية القُبْح، ومن غاية الانتقاص لله ﷻ، ولذلك كل الآيات التي تتضمن الوعيد بالخلود الأبدي في النار هي لأصحاب هذه العقائد.

ثم أتوا بمخلوقات عظيمة ولها مقام عظيم عند الله، مثل: (مِثْلُ: الْمَلَائِكَةِ وَعِيسَى وَمَرْيَمَ وَأُنَاسٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ)، هذا لاشك أنه شركٌ وكفر.

لذلك قال: (فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ يُجَدِّدُ لَهُمْ دِينَهُمْ)، لماذا قال: (يُجدد لهم) ولم يأت بدين جديد، لأن التوحيد ليس جديدًا في الأرض، فمُنذ أنزل الله ﷻ آدم عليه السلام أنزل التوحيد، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

إذاً الله أهبط آدم وحواء وإبليس من الجنة إلى الأرض، ثم أخبرهم أنه سينزل إليهم هُدى، والابتلاء والاختبار لآدم وحواء وذريتهما ليس لإبليس، إبليس لا دخل له بالاختبار، فهو مطرودٌ من الرحمة، فلا يحق له دخول الاختبار ما دام أنه طُرد من الرحمة فإنه لا يدخل الاختبار، ولهذا كان الاختبار إنما هو لمن لم يُطردوا من رحمة الله وهم آدم وزوجه حواء وذريتهما، لأن باب الرحمة مفتوح حتى يُغرغر أحدهم أو تقوم الساعة - أي تطلع الشمس من مغربها - فالله ﷻ بعث محمدًا يُجدد لهم دينهم، لأن دين إبراهيم اندرس ونسيه الناس، والسبب في ذلك كما جاء في الحديث: أن النبي ﷺ قال: «رَأَيْتُ لُحْيَ بْنَ عَمْرٍو الخُزَاعِي يَجْرُ أَقْتَابَهُ فِي النَّارِ يَجْرُ أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَدْخَلَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، خَرَجَ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ، فَرَأَى النَّصَارَى يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا لَهُمْ، فَسَأَلَ: فَأَعْجَبْتَهُ فَحَمَلَ مَعَهُ عِدَدًا مِنْهَا وَأَتَى بِهَا إِلَى مَكَّةَ، فَصَارَ النَّاسُ يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ وَيُظَنُّونَهَا آلِهَةً تَنْفَعُ وَتَضُرُّ عِبَادًا بِاللَّهِ.

ولهذا قال: (يُجَدِّدُ لَهُمْ دِينَهُمْ دِينَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ)، إذا كانوا هم على دين إبراهيم عليه السلام،

واستمروا عليه زمن إسماعيل، ثم من زمن إسماعيل إلى زمن عمرو بن لحي الخزاعي الذي كان سيد مكة في زمانه، وجلب لهم هذه الأصنام، وكان أول من بدّل دين الخليل إبراهيم الذي هو التوحيد، كما قال الله ﷻ: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ هَذَا التَّقَرُّبَ وَالْإِعْتِقَادَ مَحْضٌ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى)، هذا التقرب إذا أردت أن تتقرب يجب أن تتقرب إلى الله مباشرة، لا تتقرب إلى الله بواسطة، بل مباشرةً منك إلى الله تدعوه وتسجد له تتصدق له بإخلاص، تطلب العلم بإخلاص، تصوم له تحج له تعمل الأعمال كلها لله، لا يحتاج منك إلى واسطة، إذا ذبحت قُرْبَةً تَذْبِحُهَا بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ، ولا تذبحها للولي ولا باسم الولي ولا غيره.

قال: (وَالْإِعْتِقَادَ مَحْضٌ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى)، الاعتقاد بمعنى الاعتقاد الصحيح فيمن ينفع ويضر وهو الله وحده، يجب أن يكون الاعتقاد في الله وحده سبحانه وتعالى.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (لَا يَصْلُحُ مِنْهُ شَيْءٌ لِّغَيْرِهِ، لَا لِمَلِكٍ مُّقَرَّبٍ).

المَلِكُ المُقَرَّبُ الملائكة كلها مُقَرَّبَةٌ مِنَ اللَّهِ، لأن الملائكة مخلوقات لا تعصي الله، وكل مُطِيعٌ لِلَّهِ هو مُقَرَّبٌ مِنَ اللَّهِ كما جاء في حديث أبي هريرة المُخْرَجُ فِي الْبُخَارِيِّ الْحَدِيثُ الْقُدْسِيُّ الَّذِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَتْهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِأَحَبِّ مِمَّا افْتَرَضْتَهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُ».

إِذَا الْمَلِكُ الْمُقَرَّبُ يَعْنِي مَنْ كَمَلَتْ طَاعَتُهُ لِلَّهِ، وَالْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ كَمَلَتْ طَاعَتَهُمْ لِلَّهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ فِيهِ نَقْصٌ فِي الطَّاعَةِ وَلَا عَصِيَانٍ، لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ وَصَفَهُمْ بِذَلِكَ وَزَكَاهُمْ فِي كِتَابِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَ قَالَ عَنْهُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وأيضاً قال سبحانه وتعالى عنهم أيضاً: أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. أي لا

يتعبون ولا يتوقفون عن التسبيح لله ﷻ.

إِذَا كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]. إِذَا لَا يَصْلَحُ مَعَ كَوْنِ الْمَلَائِكَةِ هَذَا الطُّهْرَ، وَهَذَا التَّعَبُّدَ التَّامَ الْمُطْلَقَ الْأَبَدِي الَّذِي لَا يَنْقُصُ وَلَا يَتَّغَيَّرُ، إِذَا الْمَلَائِكَةُ لَيْسَ فِيهِمْ عَاصٍ أَبَدًا، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وَلَيْسَ فِيهِمْ مَنْ غَافَلَ، ي ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ لَا يَنَامُونَ، وَلَا يَتْرَكُونَ التَّسْبِيحَ يُلْهِمُونَ التَّسْبِيحَ كَمَا تُلْهِمُ النَّفْسَ، نَعَمْ هَكَذَا هُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَمَعَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الْعَظِيمَةِ الْعَالِيَةِ الَّتِي لَا يَبْلُغُهَا أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ مَنْزِلَةَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ.

نَعَمْ هُنَاكَ خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ: هَلْ مُؤْمِنِي الْبَشَرِ أَعْظَمُ مَنْزِلَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ لَا، قَالُوا: لِأَنَّ مُؤْمِنِي الْبَشَرِ ابْتَلُوا وَالْمَلَائِكَةُ لَمْ يُبْتَلُوا، فَمِنْ هُنَا تَأْتِي، لَكِنْ إِذَا جِئْنَا مِنْ جِهَةِ الْعِبَادَةِ وَكَمَالِهَا وَعَدَمِ نَقْصِهَا، وَعَدَمِ الْغَفْلَةِ عَنْهَا، وَعَدَمِ الشَّرْكِ، فَالْمَلَائِكَةُ هُمُ الْأَكْمَلُ، لِأَنَّ بَنِي آدَمَ مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُمْ فِي الْعِبَادَةِ لَا بَدَّ أَنْ يَنَامُوا، لَا بَدَّ أَنْ يَغْفَلُوا، لَا بَدَّ أَنْ يَكُونُوا فِي أَوْضَاعٍ لَا يَصْلَحُ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا، أَمَّا الْمَلَائِكَةُ فَهِيَ مُبْرَأُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَاللَّهُ ﷻ خَلَقَهُمْ لِلطَّاعَةِ لَا غَيْرَ.

وَلَيْسَ مَحَلُّ بَحْثِنَا فِي كَوْنِ الْمَلَائِكَةِ أَفْضَلَ مِنْ صَالِحِي الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ صَالِحِي الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلَ، لَكِنْ الْمَقْصِدُ أَنْ مَنْ كُمِلَتْ طَاعَتُهُ وَعِبَادَتُهُ وَتَوْحِيدُهُ كَالْمَلَائِكَةِ لَا يَجُوزُ - وَهُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ - وَلِذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ مَحَلُّهُمْ وَمَنْزِلَتُهُمْ فِي السَّمَاءِ، وَلِهَذَا هُمْ فِي الْأَرْضِ لِأَدَاءِ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ لَا لِلِاسْتِقْرَارِ، لِأَنَّ مَقَرَّ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ» يَعْنِي يَنْزِلُونَ وَيَصْعَدُونَ.. هَكَذَا.

ثُمَّ مِنْ بَنِي آدَمَ أَزْكَى بَنِي آدَمَ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ قَالَ: (وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ)، إِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ هُمُ الْأَفْضَلُ الْخَلْقِ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ، هَؤُلَاءِ هُمُ الْأَفْضَلُ الْخَلْقِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ إِعْطَاءُ أَحَدٍ مِنْهُمْ شَيْءًا، فَكَيْفَ بِمَنْ هُمْ دُونَهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ سَأَلَ الرُّسُلَ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ

سُبْحَانَكَ ﴿ يعني أنزهك عن هذا أن يكون لك شريك، قال: ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴾، وإذا كان هذا ليس حقاً لعيسى بن مريم فكيف يكون لمن دون عيسى بن مريم من الصالحين.

وكذلك في شأن الملائكة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أي نزهك عن هذا عن الشرك ﴿ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ [سبأ: ٤١]، هؤلاء ليسوا أولياء لنا، ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْحِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤١].

إذا قال: (وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٍ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمَا)، مَنْ هم غيرهم من الصالحين حقاً أو ممن يزعم عبادهم أنهم صالحين، هناك عدد كبير جداً ممن يُعبدون من دون الله ويُزعم أنهم صالحون هم في الحقيقة ليسوا من الصالحين، بل كانوا أهل فسادٍ عريض في الأرض في معتقداتهم وعباداتهم وجميع أمرهم، كانوا أهل فسادٍ عريض، فجعل هؤلاء يعبدونهم من دون الله.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالْإِلَهِاءُ فَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَرْزُقُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُحْيِي وَلَا يُمِيتُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُدَبِّرُ الْأَمْرَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ جَمِيعَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ؛ كُلُّهُمْ عِبِيدُهُ وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ.



قال الشارح وفقه الله:

يعني أن الله ﷻ هو الذي خلقهم، وهو سيدهم، وهو مالِكهم، وهو المُتصرف فيهم، فهم تحت تصرفه وقهره، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [فاطر: ١٦]، فالله ﷻ هو الخالق وهو المالك، وهو المُتصرف إذا أراد شيئاً فإنما أمره أن يقول له كُن فيكون، فكل شيء ملكه، وكل شيء تحت تصرفه وقهره وأمره.

فنسأل الله ﷻ أن يرزقنا وإياكم الإخلاص له، وتحقيق عبوديتنا له سبحانه وتعالى، وأن يجعلنا وإياكم من الداعين إلى توحيده سبحانه وتعالى الذابين عن دينه، والمُبطلين لما سوى ما جاء به النبي

محمد ﷺ، والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

